دور الوحدة في التحرير في عهد صلاح الدين الايوبي

د. صلاح ياسين داؤد الحديثي
كلية القانون / جامعة الموصل

«المقدمة»

ان مانشاهده في الاوضاع العربية من تمزق وتناحر وانهزامية وترد هو مما يؤلم فهو اذاً نظرنا اليه من الخارج وجدناه ناتجاً عن تركيز وتكثيف المخططات الاستعمارية الصهيونية— «ان معركة الوحدة هي اصعب معاركنا لانها هي الثورة الخالصة التي يضع فيها العرب جميع امكانياتهم . الثورة العربية التي لايعتمد فيها العرب الا على انفسهم هي معركة الوحدة في حين ان ثورة التحرر والثورة الاجتماعية تساندهم فيها قوى اخرى» (١) .

ولقد كان الظرف الذي مر به صلاح الدين الايوبي هو نفس مانشاهده الآن من تمزق وتناحر فكانت المرحلة تتطلب قائداً حريصاً على تصفية الحساب مع الامراء العرب والمسلمين من ذوي النزعات الاقليمية الضيقة .

ولم يقدم لنا التاريخ دراسة مجردة عنه بل انه ربط نشأته وفتوحاته ونظرياته بالوقائع والاحداث التي كانت قائمة في عصره ومجتمعه ومن ثم كان من الضروري هذا الترابط التاريخي وتقديم آراء صلاح الدين في الوحدة والتحرير وعلى ذلك فان الحكم على سيرة صلاح الدين بمعزل عن الواقع والاوضاع السياسية والاجتماعية التي نشأ فيها قد يقود الى الخطأ في الاستنتاج والتعسف في الحكم على مجريات الاحداث .

فالتاريخ قد صاحب مسيرة البشر منذ البداية وتعاقبت على اخباره حالات لاتخص من الوضوح والغموض والموضوعية في البحث في تقرير الوقائع فاختلطت فيها الاسطورة بالحقيقة وامتزجت فيها الرغبة الخفية أو الظاهرة في تمجيد الاحداث والرجال الذين

(١) المنهاج الثقافي المركزي —الجزء الأول— ص١٣١ .

صنعوها . والسبب في ذلك ان احياء الماضي الذي هو شأن المعرفة التاريخية جزء من تلك الرغبة الملحة والعميقة في مد طرفي الوجود عند كل جيل فهو من ناحية يجعل الجيل الحاضر يشعر بامتداده في الماضي ويستمتع به مفاخراً بما تحقق فيه من المنجزات وهو من ناحية اخرى يشعر هذا الجيل بان خروجه من الدنيا لن يخرجه من ذاكرة الاجيال القادمة.

ولكي تدرك المتاعب التي واجهها صلاح الدين الايوبي في ترسيخ النظام وتحمل مسؤولية الوحدة نذكر ان العديد من الامراء قد عارضوه في مسعاه في تحرير القدس ووصل الامر الى التحالف مع اعدائه والدخول معهم في حروب كما حصل مع امير الموصل وسنجار ولكن الشيء الثابت ان اعظم ماتميز به صلاح الدين هو قدرته الكبيرة على كسب القلوب وتعبئة الرجال . ليحقق الوحدة والتحرر .

وسأتناول في البحث : —

١ — اصول التكوين والصيروة .

٢ — ملامح الفكر التعبوي والسوقي .

٣ — الوحدة طريق التحرير .

٤ — خطوات التحرير .

٥ — الخاتمة .

١ ـ اصول التكوين والصيرورة: ـ

مما هو واضح ان صلاح الدين الايوبي (*) عاش ايام شبابه الاولى في كنف الدولة النورية التي عاصر قيامها الغزوة الصليبية الثانية على بلاد الشام (١) وقد كان والده آنئذٍ متولياً لحاكمية دمشق سنة ٥٤٩هـ/١١٥٤م ثم بعدها تولى امر ولاية بعلبك وهناك كان صلاح الدين يتلقى المزيد من الرعاية والاهتمام والتدريب على فنون القتال والفروسية باعتباره ابن والي المدينة (٢) فضلاً عن مرافقته للقائد نور الدين محمود زنكي (٣) وملازمته لعمه (اسد الدين شيركوه) وهو من احد قادة الجيش النوري . كما ان نور الدين زنكي كان يرسله في العديد من المهمات الخاصة بمسيرة الدولة (٤) كذلك فقد رافق نور الدين في تلقي الدروس من العديد من الشيوخ والعلماء خاصة قطب الدين النيسابوري (٥) .

(١) انظر ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق (القاهرة ١٩٠٨م) ص٢٨٨ دريد عبد القادر وآخرون الوطن العربي والغزو الصليبي (الموصل ١٩٨١) ص١١٦—١١٧ .

(٢) هاملتون جب : صلاح الدين الايوبي (بيروت ١٩٧٣) ص ١١٨ السيد الباز العريبي، مصر في عصر الايوبيين (القاهرة د/ت) ص٢٤ .

(٣) نور الدين محمود زنكي : هو ابن الامير عماد الدين امير مدينة الموصل وقد خلف والده في حكم الموصل والعديد من مناطق الجزيرة والشام وقد افتتح مدينة دمشق سنة ٥٤٩هـ وضمها لحكمه وحاول تشكيل اول وحدة قوية لمقاومة الخطر الصليبي إلا انه توفي سنة ٥٦٩هـ صلاح الدين الذي اكمل مهامه وحقق طموحاته . انظر البنداري سنا البرق الشامي (بيروت ١٩٧١) ١/١٥٠—١٥٤ ابن الجوزي المنتظم في تاريخ الملوك والامم (حيدر آباد الدكن : ١٣٥٨هـ) : ١/٢٤٨ دريد الوطن العربي والغزو الصليبي ص١١٢—١١٦

(٤) ابن قاضي الكواكب الدرية في السيرة المنورية (بيروت : ١٩١٨) ص٤٢—٤٣ .

(٥) ابو شامة ، الروضتين في اخبار الدولتين الدورية والصلاحية (القاهرة : ١٢٨٨هـ) ١/ وللمزيد عن الشيخ قطب الدين النيسابوري انظر : ابن خلكان وفيات الاعيان (القاهرة ٤٩ ٥/١٩٦—١٩٧ .

(*) هو صلاح الدين يوسف بن ايوب بن شاوي بن مروان ولد في مدينة تكريت وفي نفس اليوم حمله معه والده الى مدينة الموصل سنة ٥٣٢هـ /١١٣٨م وقد عاش سبع وخمسون عاماً قضى معظمها في قتال الصليبيين وتوفي سنة ٥٨٩هـ في مدينة دمشق . للمزيد راجع ابن شداد سيرة صلاح الدين ص٦ أبن الاثير الكامل : ١٢/٩٥ أبن خلكان وفيات الاعيان : ٦/ ٢٠٠—٢٠٢ .

وهكذا يمكن القول بان صلاح‌الدين تربى على ايدي كبار اساتذة عصره فهو اضافة الى تردده على دور العلم . فقد تدرب عمليا على ايدي والده نجم الدين وعمه اسد الدين شيركوه والسلطان نورالدين محمود زنكي الذين كانوا ممن تحدث عنهم التاريخ بفخر واعتزاز على المستوى العسكري وفي مقاومة الغزو الصليبي لبلاد الشام . (١) ولذلك فلا عجب ان تولى صلاح‌الدين وفي وقت مبكر العديد من المهام القيادية منها رئاسة شرطة مدينة دمشق سنة ٥٦٠هـ — ١١٦٥م ، ونائبا لواليها تبعا لذلك وكانت مهمة النائب قيادة العسكر والمحافظة على النظام ، وقد نجح صلاح الدين في كل ذلك فاظهر السياسة واحكم الأمور (٢) وفي سنة ٥٦٤هـ — ١١٦٦م تولي صلاح الدين منصب رئاسة الوزارة الفاطمية في مصر (٣) فاظهر كفاءة ومقدرة تفوق الوصيف تمكن بهما من السيطرة على مقاليد الأمور بالديار المصرية وكان من نتائجها اسقاط الخلافة الفاطمية واعلان الأنضمام للخلافة العباسية (٤) وقد اصدر صلاح الدين بيانا قرىء على الشعب المصري من على المنابر في ٣ صفر سنة ٥٦٧هـ واوضح فيه سياسته العامة والتي تدل على عزمه وشدته في تنفيذ القوانين ومما جاء فيه : —

اولا : رفع المكوس الديوانية بمصر والقاهرة .

ثانيا : حرية التجارة براً وبحراً .

ثالثاً : على كافة القواد العسكريين والمسؤولين تنفيذ ذلك .

رابعاً : جعل صلاح الدين عقوبة المخالفين للاحكام الصادرة اعلاه الأعدام (٥) وبعد ان اصبح صلاح الدين اميراً لمصر ونائبا لنورالدين في حكم البلاد جائته العديد من الظروف

(١) ابو بكر جلا ل طه: صلاح الدين أسد القارتين (بغداد : ١٩٦٧ ص ٢١—٢٢.

(٢) انظر : دريد عبد القادر نوري، سياسة صلاح الدين الأيوبي بغداد ١٩٧٦ص ٧—٧٢.

(٣) المصدر السابق ص ٨٩— ٩٢ .

(٤) ابن شداد النوادر السلطانية (القاهرة ١٩٦٤ ص٤٥ البغدادي سنا البرق الشامي ١/١١١— ١١٣.

(٥)انظر المنشور الذي اصدره صلاح الدين للشعب المصري بعد توليه امر مصر سنة ٥٦٧ هـ ابو شامة، الروضتين : ١/٢٠٥ ، ابن كثير البداية والنهاية— القاهرة ١٩٣٢ : ١٢/٢٦٨

المواتية التي اهلته للقيادة كان من اهمها وفاة نورالدين محمود زنكي سنة ٥٦٩هـ — ١١٧٤م وماعقبها من تمزق في الجبهة الداخلية ، ذلك التمزق الذي تصدى له صلاح الدين بحزم والذي كسب بفضله محبة الشعب والخلافة العباسية ليتنقل بعدها من قيادة مصر الى قيادة جبهة مصر والشام وبلاد الجزيرة بعد ان خاض حروبا داخلية ضد الأمراء الأقليميين مدة عشر سنوات (١) تمكن بعدها من تحقيق وحدة قوته وباسلوب قد تلائم وعصره واهدافه .

٢ — ملامح الفكر التعبوي والسوقي : —

يبدو واضحاً من سياسة صلاح الدين الأيوبي تجاه امراء الشام والجزيرة ان لصلاح الدين فكراً عسكرياً واضحاً كان يخطط لاتمامه بشكل دقيق وحازم وانه كان يسعى لتحقيق اهداف رسمها لنفسه متمشيا مع طموح ابناء شعبه كانت تنحصر بشكل خاص بموضوع الوحدة والتحرير « وقد تجلى الفكر العسكري لصلاح الدين في الفترة الأولى (فترة الأعداد لبناء الوحدة) بالتأكيد على الجوانب التالية : —

اولا — التأكيد على وحدة الجيوش المقاتلة .

ثانيا : — التأكيد على عقائدية الجيش المقاتل (العقيدة العسكرية).

ثالثاً : — رفض الأفكار والأعمال الأقليمية الضيقة والمصالح الشخصية للامراء .

رابعاً : — رفض فكرة التعاون مع الغزاة الصليبيين .

خامساً : — تعبئة الجبهة الداخلية (حشد القوى) .

ويظهر هذا الفكر العسكري واضحاً لصلاح الدين من الكتاب الذي ارسله للخليفة العباسي المستضيء بامرالله سنة ٥٧١هـ — ١١٧٥م وقد جاء في نصه « الخادم ينهي (اي صلاح الدين) ان الذي يفتتحه من البلاد ويتسلمه .. انما يعده طريقاً الى الأستنفار الى بلاد الكفار...ولانختار الا ان تغدو جيوش المسلمين متحاشدة على عدوها لامتحاسدة بعتوها... وانما امور الحرب لاتحتمل في التدبير الا الوحدة . فاذا صح التدبير لم يحتمل في اللقاء الا العدة » (٢) .

---

(١) انظر دريده، سياسة صلاح الدين ص١١٦ .

(٢) ابو شامة، الروضتين: ٢/٤٨.

ويمكن ان نتتبع ذلك الفكر الوحدوي والعقيدة العسكرية ، والتصميم الأكيد لصلاح الدين الخاص ببناء وحدة متينة وجيش عقائدي قوي من اعداده لكل الشعب والمقاتلين نفسيا وماديا لخوض المعركة الحاسمة ضد الغزاة .

فبعد وفاة نورالدين محمود زنكي سنة ٥٦٩هـ — ١١٧٤م لم يكن بين رجال البيت الزنكي من يشار اليه بانه يصلح ان يكون خلفاً لنور الدين الذي لم يترك سوى طفلا في الحادية عشر من عمره اسمه اسماعيل (١) كذلك لم يكن بين الأخوين الزنكيين سيف الدين غازي (امير الموصل) وعمادالدين (امير سنجار) (٢) وفاق وكان كل واحد منهما لايرى في طاعة الثاني مصلحة له (٣) وقد وصف العماد الأصفهاني كاتب نورالدين ومرافقه ذلك التناحر بين الأمراء الزنكيين واضطراب الأحوال السياسية بين الأمراء بقوله (كانوا لضعفٍ وثوق بعضهم ببعض يتبعون ماابرموه امس في يومهم بنقض .. وكم عقدوا ما حلوه وحلوا ماعقدوه) (٤) .

ولذلك لم يكن من المتوقع ان يحتل احد هذين الأخوين مكانة عمه نورالدين كما لم يكن من المنتظر ان تبقى منطقة الجزيرة والشام محافظة على وحدتها وقوتها خاصة وان الأمراء والضباط الكبار في جيش نورالدين دخلوا فور وفاة سيدهم في تنافس على وصاية ابنه الصغير الملك الصالح (٥) .

وفي هذه الفترة بالذات توسع الخطر الصليبي في بلاد الشام واصبح ذا تأثير كبير في سير الأحداث في السياسية المنطقة ، فقد هاجموا بانياس في اخر شوال سنة ٥٦٩هـ مايو ١١٧٤م

---

(١) ابن الجوزي المنتظم في تاريخ الملوك والامم (حيدر آباد الدكن : ١٣٥٨هـ : ١٠/ ٢٤٨ ٢٤٩ المقريزي السلوك لمعرفة دول الملوك (القاهرة : ١٩٣٩) : ١/٥٥—٥٦ .

(٢) سيف الدين غازي وعماد الدين : هما ابناء قطب الدين مودود بن زنكي امير الموصل وهما ابني اخي نور الدين محمود . توفي الاول سنة ٥٧٦هـ وتوفي الثاني سنة ٥٩٤هـ ولمعرفة المزيد عنهم انظر : ابن الاثير الكامل ١١/٣٥٥ ، ٣٦٢—٤٠٦ وج١٢/١٣٢ .

(٣) ابن الاثير الكامل في التاريخ : ١١/١٦٧ .

(٤) البنداوي ، سنا البرق الشامي ١/١٥٩—١٦٠ .

(٥) جب ، صلاح الدين ، ص١٢٢ .

وهادنهم اميرها ابن المقدم على ان يؤدي اليهم مبلغاً من الأموال وان يطلق سراح اسراهم(١) ومن الواضح فانه لم يكن بمقدور الملك الصالح ولاسيف الدين غازي ولا الأمراء المحليون ان يجابهوا الخطر الصليبي على انفراد (٢) خاصة وان الأمدادات الأوربية لم تنقطع عن الغزاة في بلاد الشام لذلك اصبح واضحاً ان يتقدم احد امراء نور الدين الأقوياء ليملاء الفراغ ويوحد الكلمة ويجمع الصف .

وقد كان صلاح الدين في هذه الفترة يملك قوة كبيرة من العدد والعدة فهو امير لمصر الغنية والقوية الواسعة وقائد لعدة فرق عسكرية (٣) ولذلك احس صلاح الدين بانه الوارث الحقيقي لنورالدين وان من واجبه اعادة بناء الدولة وتوحيد الكلمة ومواصلة السياسة التي بدأها نورالدين والهادفة الى توحيد البلاد وتحريرها من الغزاة خاصة وان بلاد الشام والجزيرة واقعة تحت عدة زعامات وهي بامس الحاجة الى الوحدة فمدينة دمشق اجمع امراؤها على اعطاء القيادة فيها لولد نورالدين الطفل (الملك الصالح (اسماعيل) تحت وصاية الأمير شمس الدين بن المقدم (٤) اما مدينة الموصل فقد استقل بها الأمير سيف الدين غازي ثم تقدم للسيطرة على منطقة الجزيرة ، فقد احتل نصيبين والخابور ثم حاصر منطقة الحران والرها عدة ايام وملكهما . ثم اخيراً تسلم منطقة سروج والرقة من اميرهما مدعيا احقيته بالحكم (٥) .

وفي حلب تمكن حاكم قلعتها شاد بخت التعاون مع ابن المقدم المار ذكره بتدبير مؤامرة نقلوا فيها الملك الصالح من دمشق الى حلب (٦) ثم سيطروا بعدها على وصايته والقوا ، القبض على كل اصدقاء صلاح الدين والمخالفين لسياستهم واودعوهم السجن (٧) .

---

(١) انظر : ابن النديم ، وبدة الحلب في تاريخ الحلب (بيروت : ١٩٦٨) : ١٢/٣ وانظر
Stevenson: The Crusaders in the East. Cambridge, 1907.
213.. Kame prod. Ahestory of EgyPtin the Middl ages London
1968 P. q199

(٣) انظر : دريد ، سياسة ص ١٢٠—١٢١ .

(٤) انظر : ابن الاثير الكامل ١١ / ٤٠٥ ابن واصل مفرج الكروب ٢٩٢ البنداري سنا البرق ١/١٥٤

(٥) ابن الأثير ، الكامل ١١/٤٠٧ ابن العديم زبدة الحلب ٣/١١—١٢.

(٦) للاطلاع على تفاصيل هذه المؤامرة انظر دريد سياسة ص١٢٩ — ١٣٢.

(٧) انظر بن العديم زبدة الحلب ٣/١ .

خاصة اخوة مجدالدين (٤) الذين كانوا من اعيان الدولة . ويبدوا انهم اهينوا من قبل قبل المتآمرين وانهم ضربوا بالايدي والأرجل (٥) وقد وصف المؤرخ الأصفهاني تلك الأعمال العدوانية بقوله (لقد شعثوا القلوب بما جنوه .. وتطاير من حلب الى مصر من نارهم الشرر ((٦) .

ان هذا الأضطراب السياسي في حلب ودمشق وبلادالشام عموماً جاء سببا ثانيا اضافة الى وفاة نور الدين — دفع بصلاح‌الدين الى التدخل في الأمور من‌اجل حسم الموقف ، لصالح طموحات الشعب العربي في الوحدة والتحرير . وقد جاء السبب الثالث ملحاً للتدخل عندما وصلت الأخبار الى صلاح الدين بان حاكم دمشق ابن المقدم عقد مع الغزاة الصليبيين وانه اطلق سراح اسراهم خوفاً منهم وحفاظا على مصالحه الأقليمية الضيقة (٧)

لقد استنكر صلاح‌الدين معاهدة الصلح مع الغزاة وكتب في الحال الى قاضي مدينة دمشق (شرف الدين بن ابي عصرون يحرضه فيها على الأستنكار ويقول له : لقد باغني حديث الهدنة المؤذن بذل الأسلام وشين شريعة المصطفى (ص) وسيدنا الشيخ اولى من جرد لسانه في انكار هذا الأ مر فان بلسانه تغمد السيوف وتتجرد الحقوق . (٨)

وهكذا كان لابد لصلاح الدين من حسم الموقف عمليا ويبدو فكره العسكري وبعد نظره المستقبلي عندما صرح لقادة جيشه بقوله(انا احق برعي العهود والسعي المحمود فاذا ، استمرت ولاية هؤلاء تفرقت الكلمة المجتمعة...وانفردت مصر عن الشام وطمع اهل

---

(١) اخوة مجد الدين هم: علي ابن الداية وسابق الدين عثمان وبدر الدين الحيسن الذين كانوا من اقرب اصدقاء نوار الدين وكان الجميع يظن إنهم سيكلفون ولده الملك الصالح وكان على مقدرة كبيرة من الصدق والنزاهة اضافة الى انهم من اصدقاء صلاح الدين. انظر سنا البرق الشامي ١/١٦٣— ١٦٨. مفرج الكروب ٢/٦.

(٢) البنداري سنا البرق ١/١٦٥— ١٦٦ ابن العديم زبدة تأريخ حلب ٢/١٤— ١٥.

(٣) البنداري السابق ١/١٦٦.

(٤) انظر دريد سياسة ص١١٨ .

(٥) سبط ابن الجوزي مرآة الزمان في تأريخ الأعيان (حيدر اباد الدكن) ١٩٥١ : ٨/٣٢٩ابه شامة الروضتين: ١/٢٣٣.

الكفر في بلاد الشام (١) وقد اوضح المؤرخ ابو شامة نصاً لطيفاً حدد فيه هدف صلاح‌الدين في ارض الأسلام وذكر بانه عازم على تحرير القدس واعادة الوحدة التي كانت ايام نورالدين وان الأمراء الأقليميين وإنْ لم يساندوه في حربه ضد الغزاة فانهم من غير شك سيكونون مستعدين للتواطىء مع عدوه هذه فقال (ان يكونوا بنيانا فيعضدوه اذا سعى ويلبوه اذا دعا ولايقعدوا عن المعاضدة في فتح البيت المقدس فان قعدت بهم العزائم واخذتهم في الله اومة لائم فلااقل من ان يكونوا اعوانا عليه يلقونه عن قصده حريصين على اتصال المكروه اليه (٢) .

ولما وجد ان الأمراء الأخرين مشغولين عنه كان عليه ان يحقق الهدف ولو بالقوة ولذلك اعتبر تقدمه نحوالشام واجباره للحكام الأخرين بالانضمام تحت لوائه انما هو لخدمة الجهاد في سبيل الله (٣) ولذلك ابتدأ بتحريك الرأي العام ضد اولئك الأمراء الرافضين اسياسته واستخدم علماء الدين لذلك الغرض فارسل كما مراول كاتبه الى الشيخ ابن ابي عصرون يطالب منه تنبيه المسلمين ولاستنكار اعمال الخيانة الأعمال الأنفصالية . وقد كان آنئذ لعلماء الدين اثر كبير في اثارة عامة المسلمين . وقد جاء المحفز الأخير لصلاح‌الدين في التحرك من مصر الى بلاد الشام عندما كاتبه اهالي دمشق في نهاية عام ٥٦٩هـ/ ١١٧٣م وطلبوا منه بالحاح التوجه اليهم من تحركات الصليبيين المشبوهة في المنطقة ودفعاً لتشتت المدينة ووقوعها بيد امراء حلب (٤) مما يدل على ان صلاح الدين اصبح في تلك الفترة معقداً لطموحات الشعب ومحط انظارهم والمنقذ لهم من الأخطار المهددة لهم في الداخل والخارج . وفي اوائل سنة ٥٧٠هـ — النصف الثاني من سنة ١١٧٤م تجهز صلاح‌الدين للسفر الى بلاد الشام ليقود من هناك عملياته الوحدوية التحررية.وقد كان من الطبيعي ان يقع الصدام بين صلاح الدين والأمراء الزنكيون ، لانه ليس من المعقول ان ينضم كل الأمراء الى صلاح الدين بالطريقة التي كان يراها صلاح‌الدين نفسه . وهكذا وقع على

---

(١) ابو شامة ، الروضتين: ١/٢٣٤.

(٢) السابق ١/٢٥٤

(3) Sivan, L'Islam et al Croisade. Paris, 1968, P-96

(٤) انظر : ابن تغري بردى، النجوم الزاهرة ٦/٢٤- ٢٥.

عاهل صلاح الدين القيام بحملة اعلامية موسعة لافهام كل الأطراف المعنية باهدافه النبيلة وانه عازم على فتح بيت المقدس وان من لم ينضم اليه فانه من غير شك سيكون مستعداً للتواطىء مع عدوه ضده (١) .

اذن كان على صلاح الدين اعادة التسلح الخلقي بين ابناء جيله من خلال اعلانه للجهاد في سبيل الله . اي انه اخذ يعد الدولة الحرب بقيادتها وشعبها عن طريق توضيح الاهداف المستقبلية للامة والتي حددها صلاح الدين بالكتاب الذي ارسله للخلافة العباسية عام ٥٧١هـ اعلمها فيه اسباب تقدمه في مصر الى الشام ومن جملة ماجاء في ذلك الكتاب بقوله (وعرفنا ان البيت المقدس ان لم تتيسر الأسباب لفتحه واصر الكفر ان لم يجرد العزم في قلعة والأثبتت عروقه وكانت همم القادرين بالقعود آثمه . وانا لا نتمكن بمصر منه لبعد المسافة وانقطاع العمارة وكلال الدواب . واذا جاوزناه كانت المصلحة بادية ، والمنفعة جامعة واليد قادرة والبلاد قريبة والغزوة ممكنة والميرة متسعة والخيل مستريحة والعساكر كثيرة) (٢) .

٣ ـ الوحدة طريق التحرير : ـ

بين صلاح الدين لمن يهمهم الأمر في عصره شعباً ومقاتلين وامراء ان الوحدة لازمة وان من لاينخرط فيها فان قتاله واجب جهادي كواجب مجاهدة الغزاة وقد ذكر صلاح الدين قوله (وماكنا بشهادة الله في قتال (الزنكيين) الا كقاطع كفه ليسلم سائر جسمه وكراكب حد السنان مضطراً في حكمه ((٣) .

كما بين صلاح الدين ان هدفه وقبل كل شيء هو وحدة الجيوش المقاتلة وانتمائها لقيادة عسكرية واحدة لخدمة هدف تحرير القدس . وقد جاء على لسان كاتب صلاح الدين القاضي الفاضل اشارة الى ذلك الهدف قوله (ولانختار الا ان تغدو جيوش المسلمين متحاشدة على عدوها لامتحاسدة بعضها ولولا ان امور الحرب تصلحها الشركة لما عز عليه

---

(١) البنداري، سنا البرق ٦٩/١ .

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الأنشا (القاهرة ١٩٦٣) ٨٥/١٣.

(٣) ابو شامة الروضتين ٦٢/٢.

ان يكون كثير المشاركين ولااساءة ان تكون الدنيا كثيرة المالكين وانما امور الحرب لا تحتمل في التدبير الا الوحدة فاذا صح التدبير لم يحتمل في اللقاء الا العدة) (١) .

وفي بداية صفر من سنة ٥٧٠هـ / ٣ايلول سنة ١١٧٤م خرج صلاح الدين من مصر بحوالي سبعمائة فارس من معسكره متجها نحو مدينة دمشق وقد دخلها يوم الثلاثاء نهاية شهر ربيع الأخر من سنة ٥٧٠هـ — الموافق ٢٨ تشرين الأول سنة ١١٧٤م بعد ان مر بالعديد من الحصون والقلاع التي انضمت اليه واعلنت استعدادها للتعاون معه (٢) علما بان الدمشقيين رحبوا به غاية الترحيب كذلك فان صلاح الدين عبر لهم عن حسن نيته وسلامة اهدافه واتبع سياسة حكيمة في مدينة دمشق كسب بها محبة الجميع واعطى من خلالها درسا عمليا للمدن العربية التي تنضم اليه من غير قتال فقد اصدر على الفور اوامره بانفاق الأموال وتوزيعها على الناس والمناداة بازالة المكوس وابطال المنكرات والضرائب التي احدثت بعد وفاة نور الدين محمود (٣) كذلك عمد صلاح الدين الى ارضاء علماء الدين وفقهاء المدينة لما لهم من اثر كبير في نفوس الناس فقد كان بيدهم بشكل او بأخر الأعلام في المدينة . وقد مشى صلاح الدين الى دار قاضي القضاة (كمال الدين بن مشهرزوري) الذي كان بيده الأشراف على مدارس مدينة دمشق تعبيراً منه على احترامه للقاضي حيث اظهر له خاصة وللدمشقيين عامة صفاء نيته وحسن خلقه . (٤)

وقد كانت نتيجة اعماله تلك الترحاب الحار من قبل القاضي وعامة سكان المدينة . فالقاضي قال لصلاح الدين وسط تجمعات الحاضرين (طب نفسا فالامر امرك ، والبلد بلادك) (٥)

---

(١) السابق ٢/٤٨

(٢) انظر ابن الأثير الكامل : ١١/١١٧ ابن العديم الزبدة ٣/١٩ البنداري سنا البرق الشامي ١/١٧٧—١٧٨.

(٣) ابو شامة ، الروضتين ١/٢٣٦ ابن شداد النوادر السلطانية (القاهرة ١٩٦٤) ص٥٠ المقريزي السلوك ١/٥٨ عاشور الحركة الصليبية (القاهرة ١٩٦٣ ٢/٧٤٣.

(٤) انظر ابن العماد الحنبلي ،شذرات الذهب في اخبار من ذهب (بيروت د/ت : ٤/٤٣.

(٥) المصدر نفسه.

اي ان القاضي اعلن للدمشقيين عامة التسليم المطلق اصلاح الدين الذين اظهروا بدورهم السرور والمحبة اله حيث توافدوا عليه بالمدح والثناء وقيلت في حقه القصائد الطويلة . (١)

اما المدن العربية الأخرى في بلاد الشام والجزيرة فلم تقف من صلاح الدين موقف دمشق الأيجابي وانما تصدت اله بشتى الوسائل وخاصة مدينة حلب والموصل غير ان صلاح الدين تمكن في النهاية من أجبارها على الدخول في الوحدة سواء كان ذلك بالاسلوب العسكري اوالسياسي عن طريق الترغيب والترهيب . ففي سنة ٥٧٠هـ / ٥٧١هـ ١١٧٤م / ١١٧٥م دخل صلاح الدين حمص وحماه منتصراً ولم يلق مقاومة تذكر (٢) اما حلب والموصل فقد اتفق امراؤها على مقاومة صلاح الدين عسكرياً وتقدما لحربه .

وقد حدثت معركة بين الطرفين في ١٩ رمضان سنة ٥٧٠هـ / ١٣ نيسان سنة ١١٧٥م انتصر فيها صلاح الدين على خصمه بعد ان حاول لمرات عديدة مصالحتهم . واجتهد في ذلك .

كما ذكر المؤرخ ابن شداد (فما صالحوه وروا ان الحرب معه خير وسيلة لنيل مقصودهم) (٣) غير ان اماالهم خابت اذ ولوا مدبرين امام جند صلاح الدين(٤) ومما تجدر الأشارة اليه ان صلاح الدين كان يعامل خصومه من العرب معاملة اخوية وانسانية ويستخدم معهم كل الأساليب السلمية من اجل عدم اراقة دمائهم للاحتفاظ به ليوم الفصل مع الغزاة الصليبيين . فقد كان يراسل امراء حلب والموصل كل على انفراد من اجل فك ارتباطهم اوكان يطمع احدهم بالاخر ولما اغلقت ابواب السلام امامه قاتلهم من غير قسوة ثم كان يامر جنده بعد هزيمة اعدائه (ان لايتبع مدبر ولايقذف على جريح ثم انه كان يطلق من يقع في اسره منهم (٥) وقد عبر عن هذه السياسة الحكيمة المؤرخ الفرنسي شيفان بقوله (كان صلاح الدين يخاف ضرب الموصليين بقسوة لان دمهم واحد

---

(١) انظر نص العديد من القصائد التي قيلت في مدح صلاح .الدين الأصفهاني خريدة القصر (دمشق ١٩٥٥. ق١/٣٢٩- ٣٣٠ ابن اهنشاه مضمار الحقائق (القاهرة) ١٩٦٨ ص٢١ ١٣-٥. راجع بخصوص دخول حمص وحماة في وحدة صلاح الدين : دريد سياسة ص ١٥٠-١٥٤-٦. ابن شداد النوادر السلطانية ص٥١.

(٢) ابن كثير البداية والنهاية ١٢/٢٩٠

وقد استخدم الطرق النفسية حتى لايثير غضب المسلمين ضده وتراق الدماء بينهم) (١)

وبانتصار صلاح الدين على الموصليين والحلبيين توصل الطرفان الى صيغة اتفاق ايجابي كان الخطوة المهمة على طريق الوحدة والتحرير . ويمكن استخلاص شروط ذلك الأتفاق من نسخة اليمين التي ذكرها ابن الأثير والأصفهاني (٢) وابن واصل والتي يمكن صياغتها بما يلي : —

اولا : للجميع يدا واحدة ضد الغزاة الصليبيين .

ثانيا : لايجوز لاحد الأطراف نقض العهد .

ثالثاً : اذا نقض احد الأطراف العهد اوخالفه فالباقون يدا واحدة عليه حتى يرجع الى الوفاق الاان هذا الأتفاق لم يستمر طويلا لان امراء الموصل نقضوه بعد سنة ٥٧٦هـ / ١١٨٠م مما دفع صلاح الدين الى محاربة الموصليين والتقدم بقواته نحو مدينة الموصل ومحاصرتها وقد تم له حصارها ثلاث مرات(٣)والتشديد على اهلها لاجبارهم على قبول الصلح والدخول في الوحدة وذلك لتتخذ من الموصل عوناً له بما تملك من قدرات طبيعية وبشرية لتحرير القدس وكذلك ليأمن صلاح الدين خطوطه الخلفية من اعدائه .

إذن فكر صلاح الدين باسلوب القائد الفذ ان امراء الموصل وحلب اذا لم يسانده فربما يعاونوا اعدائه ضده. وعلى اقل احتمال فالاطمئنان لايكون عند قتال الأعداء في الشمال الابعد تامين الجبهة الجنوبية (الداخلية) وقد عبر صلاح الدين عن فكره العسكري هذا بكتابه الذي ارسله للخليفة العباسي والذي اوضح فيه ان حكام الموصل (لو تحرك اليوم متحرك لكانوا له كنانة واكانت بلادهم له خزانة.. (وانه) يرجوا بالموصل ان يكون الموصل الى القدس وسواحله) (٤) .

(1) Sivan,I ''(slma et la Croisade Ideologe et Propaganed dans les Reactions P. 98.

(٢) الكامل في التأريخ ١١/٤٣١ بأسنا البرق الشابي ١/٧-٢١-٢١٨ مفرج الكروب ٢/٤٦

(٣) للاطلاع على خطوات حصار صلاح الدين لمدينة الموصل والصلح عليها انظر : دريد نسب صلاح الدين ص٢٠٣-٢١٤، ٢١٧-٢٤١-٢٤٤

(٤) ابو شامة الروضتين ٢/٤٩.

هكذا أذن اعتبر صلاح الدين بان الموصل هي الطريق الموصل الى القدس واعتبر قتال حكامها من ذوي الاطماع الاقليمية الضيقة من مهام الجهاد في سبيل الله تعالى ولذلك الح في طلبها الى أن استسلمت لارادة الوحدة وانتهى الامر بالاتفاق التالي : الذي عبر بصدق عن عقيدة صلاح الدين العسكرية الهادفة الى استجماع العساكر لاغير من اجل التحرير وهو : —

اولا : يترك صلاح الدين لامير الموصل حكم البلاد والتصرف التام بالولاية .

ثانياً : ان تكون الخطبة باسم صلاح الدين في كل بلاد الموصل والجزيرة .

ثالثاً : على امير الموصل عز الدين مسعود أن يستعد بعساكره وان يكون بخدمة صلاح الدين متى استدعاه لمجاهدة الصليبيين وهذه هي أهم خطوة في الاتفاق جعلت القيادة العسكرية بيد صلاح الدين ودفعت بحاكم الموصل الى تعبئة قواه العسكرية لانتظار ساعة الصفر من صلاح الدين.

رابعاً : اتفق الطرفان على الحفاظ على المعاهدة ووقعت بنودها في ٩ ذي الحجة سنة ٥٨١هـ الموافق ١١٨٦/٣/٣ .

ومن الواضح فان صلاح الدين خلال الفترة السابقة تمكن من ضم كل مدن وقلاع الجزيرة وبلاد الشام لسلطانه — عدا تلك التي كانت محتلة من قبل الغزاة الصليبيين — واصبح بفضل تلك الوحدة قائداً توجهت اليه انظار ابناء جيله . رجو بفضل مقدرته وحسب سياسته أن يتحقق على يده الهدف الاكبر الا وهو طرد الغزاة الصليبيين من بلاد الشام وتحرير القدس. وفي هذا المجال لابد من الاستفسار عن ماهية الاسباب التي مكنت صلاح الدين من نجاح سياسته الوحدوية تلك الوحدة التي لولاها لما تحقق الهدف الثاني وهو (التحرير) وباختصار يمكن ان نتبين ذلك من خلال تفوق صلاح الدين على زملاؤه بحسن سياسته وفكره العسكري الثاقب. وتمكنه من استغلال ظروف عصره والمناداة بما كان يطمح به ابناء جيله . يمكن ايضاً ان نتلمس بعض الجوانب الايجابية العمليه في سياسته تجاه العرب والمسلمين متمثلا بالملاحظات التالية : —

اولا: كان صلاح الدين يحدد اهدافه مسبقاً ويتخذ من الاسلوب العسكري التربوي طريقاً لتجميع الاعوان حوله فكان شعاره الذي يرفعه (الوحدة من اجل التحرير) و(الجهاد في سبيل الله) وكان يعبر عن كل ذلك في كل كتبه ومراسلاته لامراء المدن العربية والخليفة العباسي وعلماء الدين. ومن ذلك الكتاب الذي أرسله للخليفة العباسي سنة ٥٧١هـ والذي ذكر فيه بان (الذي يفتتحه من البلاد انما يعده طريقاً الى الاستنفار الى بلاد الكفار .. وانما امور الحرب لاتحتمل في التدبير الا الوحدة) (٢)

ثانياً: كان صلاح الدين يهدف بشكل عام الى كسب ارضاء جمهور الامة والاجناد ويسعى الى عدم التفريط بهم في كل الاحوال. عندما كان يصطدم عسكرياً ببعض القوات العربية المعادية او عندما كان يحاصر بعض المدن العربية التي لها مواقف انفصالية.

فكان في كل معاركه يأمر جنده بعدم استخدام العنف معهم او الهجوم بقوة على حصونهم كما كان يطلق سراح اسراهم كذلك اذا ماراد أن يفتح مدينة من المدن التي استعصت عليه فأنه كان يستخدم الطرق التالية لفتحها : —

(أ) كان يصدر قرارات الامان لكل من يستسلم بدون قتال على شرط ان تكون العسكر واحده عند المنصرة ضد العدو الخارجي كما حدث ذلك لاهالي حصن كيفا(٣)مثلاً.

(ب) كان صلاح الدين يلقي بواسطة السهام رقاع يكتب عليها عبارات الترغيب والترهيب الى داخل الحصون الممتنعة لدفع اهلها الى طلب الاستسلام بعدها يحدث بين صفوفهم اضطراباً نفسياً كما حدث ذلك عندما فتح صلاح الدين حصن آمد (٤).

---

(١) انظر بخصوص معاهدة صلاح الدين وحكام الموصل ابن شداد النوادر ص٧٠ ابن الأثير الكامل ١١/٥١٧ ابو شامة الروضتين ٢/٦٤ المقريزي السلوك ١/٩٠ ابن واصل مفرج الكروب ٢/١٧٢ ابن خلدون التأريخ ٥/٥٨٢-٥٨٣.

(٢) ابو شامة ، الروضتين ٢/٤٨.

(٣) جاء في الكتاب الذي ارسله صلاح الدين لحاكم حصن كيفا (من جاء مستسلماً سلمت بلاده على ان يكون من اجناد السلطان واتباعه ومساعديه في جهاد الكفرة) ٢/٣٢ الكامل ١١/٤٨٣

(٤) انظر الكامل: ١١/٤٩٤ مفرج الكروب ، البداية والنهاية ١٢/٣١٣.

(ج) كان صلاح الدين يظهر للمدينة القوية المحصنة بانه انما جاء يتدبر بقربها وانه عازم على الاستقرار الدائم بجوارها مما يدفع بمن داخل المدينة الى طلب الامان او السعي من اجل الوصول الى الصلح .لانهم لايستطيعون الاستمرار ابغلق ابواب مدنهم بوجه صلاح الدين المحاصر بقواته الضخمة لهم. حدث ذلك فعلا عندما حاصر صلاح الدين مدينة حلب سنة ٥٧٩هـ حيث لم يعمد الى مهاجمة المدينة او الاضرار باهلها وممتلكاتهم (لانهم اخوته واليد التي يقاتل بها اعدائه الغزاة مستقبلا) . (١)

(د) وفي بعض الاحيان كان صلاح الدين يقدم بعض التنازلات ويمنح الاموال الوفيرة لامراء بعض الحصون من اجل فتح حصونهم سلماً من دون قتال كما حدث ذلك عند محاصرته لحصن حارم وميا فارفين. (٢)

(هـ) واحياناً اخرى كان صلاح الدين يلجأ الى الاساليب السياسية فيعمد الى التحالف مع بعض الامراء ضد الامراء الاخرين ليضعف من قوى الخصم ويدفعه الى طلب الاستسلام وقد جرب صلاح الدين هذا الاسلوب عندما حالف عماد الدين امير سنجار ضد أخيه عز الدين حاكم الموصل . (٣)

ثالثاً: كان صلاح الدين اذا أفتتح حصناً او مدينة عربية لايشترط أهلها في شيء سوى أن يكون العسكر تابعاً له في اوقات الازمات بينما يترك المدينة لاهلها مع كل اموالهم ومتاعها وكان شعاره دائماً (نحن نريد من المدن شوكتها لازهرتها) ومن امثلة ذلك مدينة حلب التي أفتتحها سنة ٥٧٩هـ ولم يشترط على حاكمها عماد الدين سوى ارسال العساكر في الخدمة للغزاة .. والمظاهرة والحضور في مواقف الغزو) (٤)

رابعاً: كان صلاح الدين اذا دخل حصناً او مدينة عربية من مدن الشام والجزيرة يعلن العفو العام عن اهل ذلك المكان . وقد حدث ذلك لمدينة دمشق وهذه السياسة الحسنة دفعت بكثير من الحصون الى الاستسلام اليه لعلمها مسبقاً بان صلاح الدين سوف يكرمها ولا

(١) انظر الكامل: ١١/٤٩٥ الروضتين ٢/٤٢.
(٢) انظر ابن واصل مفرج الكروب ٢/١٤٦– ١٤٧ ابن العديم. زبدة الحلب ٣/٧٠.
(٣) انظر : درويد سياسة ص ٢٢٢– ٢٢٤.
(٤) ابو شامة الروضتين ٢/٤٣ ، ٤٨

يعتدي على احد فيها وقد اتخذ هذا الموقف حاكم حصن حيفا وحاكم عكا سنة ٥٧٨هـ(١)

٤ — خطوات التحرير : —

تبين من قبل ان صلاح الدين الايوبي بقي اكثر من عشر سنوات (٥٧٠ — ٥٨١هـ) (١١٧٤ـ١١٨٥م) يعمل من اجل تحقيق الوحدة واعداد العدة قبل ان يبدأ بمرحلة التحرير وقد نجح في مسعاه وانتصر على كافة مناوئيه بفضل حسن تدبيره السياسي والعسكري وتمكنه من استغلال الظروف المواتية التي كان يعيشها المجتمع العربي انذاك والمناداة بما كان يطمح اليه جمهور الامة في الوحدة والتحرير . ومن الجدير بالذكر فان صلاح الدين لم يقف من الغزاة الصليبيين موقفاً حاسماً في فترة بناء الجبهة الداخلية المار ذكرها وقد تميز فكره العسكري تجاه الغزاة بطابع اللين والمهادنة . وذلك من اجل تجميع القوى والاعداد للمعارك الفاصلة في المستقبل القريب وقد حدثت له مع الغزاة عدة مواقف عسكرية وسياسية تمثلت بهجوم الصليبيين على مدينة الاسكندرية وفشلهم (٢) وانهزام صلاحَ الدين في معركة الرملة (٣) وانتصاره في من عيون وحصاره المتكرر لحصن الكرك ذي الموقع العسكري المهم (٤) وقد تخلل تلك الفترة عقد العديد من المهادنات الموقته استخدمت لمشاغلة العدو ولتجميع القوى وبعد ان تم لصلاح الدين ماراد تقدم لتصفية حسابه مع الغزاة تصفية جادة . وقد كان كل شيء معداً له عند نهاية سنة ٥٨٢هـ / ١١٨٦م غير انه كان ينتظر الفرصة الملائمة للهجوم على العدو وربما اراد صلاح الدين الا يدفع بقواته لقتال لايعلم نتائجه فقد تكون عاقبة الحرب وخيمة ولذلك انتظر فرصة ملائمة تدفعه للحرب دفعاً ولا يكون هو المسؤول وحده عن نتائجها . وقد جاءت الفرصة مواتية لصلاح الدين عندما نقض البرنس ارناط (حاكم حصن الكرك الصليبي) المعاهدة التي عقدها مع صلاح الدين والتي تعهد فيها بعدم الاعتداء على المسلمين . غير انه غدر بقافلة تجارية عربية وسيطر على حمولتها الكبيرة وهي في طريقها الى بلاد الشام من مصر . (٥)

---

(١) انظر : سنا البرق الشامي ١٦٦/١—١٦٧، مفرج الكروب ٢٥/٢—٢٨ السلوك ٥٨/١.

(٢) انظر دريد سياسة ص ٢٦١— ٢٦٤.

(٣) السابق ص ٢٦٩—٢٧٣.

(٤) انظر : ابن الأثير الكامل ٤٥٦/١١ ابو شامة الروضتين ٩/٢.

(٥) ابن شداد، النوادر السلطانية: ص٧٤—٧٥، الأصفهاني الفتح القسي ص ١٣

وقد كان صلاح الدين عند ذلك بمدينة دمشق فارسل على الفور باستدعاء العساكر فاتته من كل المدن والاطراف التي دخلت ضمن وحدته من بلاد الشام والجزيرة وتقدم بهم نحو الاردن يوم الجمعة ١٧ ربيع الاخر سنة ٥٨٣هـ وكانوا زهاء اثني عشر الف مقاتل فاستعرضهم ورتبهم اطلابا (١) ثم اخذ يعين مواقع القتال ومواقف الامراء والقادة ثم نزل على بحيرة طبرية عند قرية الضبيرة التي وضع فيها خططه العسكرية مستعيناً بمواقع الارض والرجال (٢) .

وقبل التطرق إلى طبيعة الفكر العسكري لصلاح‌الدين والخطط التي اتبعها تجاه الغزاة لابد لي من الاشارة إلى مسألة هامة وهي ان صلاح‌الدين لم يتمكن من تحقيق انتصاره على العدو لولا نجاحه في اتمام الوحدة وتعبئة الجبهة الداخلية مادياً ومعنوياً ... الا انه يجب الا نبالغ كثيراً في تضخيم الموارد التي حصل عليها صلاح‌الدين من المدن العربية والمناطق التي انضمت لوحدته . لان ذلك يخالف الوقائع التاريخية ويخدم وجهة نظر الغزاة من ناحيتين : اولهما : انه يبرر خسارة الصليبيين امام صلاح الدين وثانيهما : انه يقلل من اهمية انتصارات صلاح الدين .

وكثيراً ما ذكرت بعض المراجع الغربية والعربية وصفاً لا يخلو من مبالغة كبيرة في تعداد الطاقات البشرية والاقتصادية التي اصبحت بحوزة صلاح‌الدين قبيل معركة حطين من دون ذكر للطاقات الكبيرة جداً التي كانت بيد الصليبيين . اضافة إلى مبالغتها بذكر الضعف الذي انتاب مملكة بيت المقدس الصليبية . مما يوحي بان انتصار صلاح‌الدين كان هيناً لتفوقه بالعدة والعدد وانه قاتل قوة صغيرة وضعيفة (٣) .

---

(١) الأطلاب : جمع طلب وهي كلمة كردية معناها الذي يقود مائتي فارس في ميدان القتال واحياناً كانت تطلق على قائد المائة . ثم اصبح مدلولها يطلق بعد ذلك على الكتيبة انظر المقريزي السلوك (تحقيق مصطفى زيادة) هامش رقم (٢) ١/٢٤٨ .

(٢) انظر : النوادر السلطانية ص ٧٥-٧٦ مفرج الكروب ٢/١٨٧

(٣) كمثال لمبالغة بقوة صلاح الدين وطاقاته في مقابل قوة الصليبيين راجع غرابية العرب والترك (دمشق ١٩٩١ ص٢٤) وانظر ايضاً عاشور الحركة الصليبية ٢/٧٦٥ فيشر تأريخ

ولو تفحصنا المصادر العربية والغربية الخاصة بموضوع حروب صلاح‌الدين لتبين من غير مبالغة — بان الموارد والطاقات البشرية والمادية التي كانت بيد الصليبيين لهي اكبر بكثير مما كان بيد صلاح‌الدين . نظراً لان معظم دول اوربا كانت مشاركة في الحرب ضد صلاح‌الدين وانها كانت تمد الغزاة في بلاد الشام بخيرة ابطالها ورجالها ومعداتها . والتي كانت تضم ملك المانيا وفرنسا وبريطانيا وامراء ايطاليا والبندقية وكل طاقات الكنائس الاوربية رجالها حتى ان ريتشارد بحث عمن يشتري منه مدينة لندن لينفق اموالها في الحرب ضد صلاح الدين .

في الوقت الذي كان صلاح‌الدين يحارب بعساكر مصر والشام وبلاد الجزيرة فقط بمدنها الاساسية (دمشق وحلب والموصل واربيل وسنجار والقاهرة) علماً بان الخلافة العباسية كانت آنئذ ضعيفة ولم تقدم اية مساعدات لصلاح‌الدين سوى بعض الحمولة من النفط الخام (١) .

على اية حال فالموقف العسكري بين صلاح‌الدين والغزاة الصليبيين تأزم بشكل كبير واعلن كل طرف التعبئة العامة فصلاح‌الدين كما مر حشد ما يقرب اثني عشر الف مقاتل اما الصليبيون فقد اجتمعوا واصطلحوا واحتشدوا عند صفورية وكانوا في خمسين الفاً(٢) وقيل في اربعين الفاً(٣)وصفورية كما هو معروف غنية بمياهها وموارداها الغذائية ومراعيها(٤) اي ان الصليبيين عسكروا في منطقة جيدة صالحة لان تكون موضعاً عسكرياً فيه من الظروف التعبوية ما يساعد على استمرار قتال صلاح‌الدين الذي كان بدوره قد عسكر في منطقة الصنبرة قرابة بحيرة طبرية (٥) وفي هذا الموقع من الاهمية الكبيرة حيث السيطرة عليه تحول بين الصليبيين وبين الانتفاع من مياه نهر الاردن والابار القريبة الاخرى (٦) .

(١) انظر : سبط ابن الجوزي مرآة الزمان ق ١ : ١/٤٠١ .
(٢) المقريزي : ١/٦٢ ، العليميه الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل (النجا : ٩٦٨) ١/٣٢٠
(٣) اليافعي : مراة الجنان وعبرة اليقظان (مؤسسة الأعلمي للمطبوعات : ١٩٧٠) ٣/٤٢٤ .
(٣)
(٥) حدد موضع ياقوت الحموي بأنها تقل بالأردن وانه بينها وبين طبرية مسافة ثلاثة اميال (معجم البلدان ٣/٤٢٥)
(٦) ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة : ٦/٣٢ .

ويبدو ان صلاح الدين كان يعرف مسبقاً خططه ويعي اهدافه وانه كان يسعى لاجبار الصليبيين على الخروج اليه مجتمعين بعيداً عن منطقة صفورية لينزل بهم الضربة الكبيرة فقد ارسل من منطقة الصنبرة الكشافة والعيون لجمع المعلومات عن تحركات العدو واسلحته ثم هاجم ببعض قواته مدينة طبرية التي كانت محتلة من قبل الصليبيين لمشاغلة قواتهم واجبارهم على الخروج من صفورية إلى حطين (١) ذلك الموقع الذي هيأه صلاح الدين لصالح قواته . فقد ردم كل الابار والصهاريج الواقعة قبالة جيش العدو ولم يبق منها الا ما هو واقع في حضرة قواته (٢) وهناك كان صلاح الدين كما ذكر الاصفهاني كاتب صلاح الدين ومرافقه — يسهر الليل ويعين مواضع القتال لاجناده ويأمر بملأ الجعاب وكنائفها بالنبال حتى انه فرق من النشاب اربعمائة حمل كما عين سبعين موضعاً ملاها بالنشاب ليقصدها من عسكره من خلت جعابه منها (٣) .

ان تحرك العدو لملاقاة صلاح الدين معناه محاصرتها بعيداً من الماء اضافة إلى مكابداتها عناء الطريق ويكون عندها صلاح الدين بقواته مستعداً للانقضاض على العدو وتدميره وهكذا سر صلاح الدين بنباء تقدم قوات العدو نحوه هتف قائلا — على حد قول المؤرخ الاصفهاني (قد حصل المطلوب وكمل المخطوب وجاءنا مانريد) (٤) اذ صحت كسرتهم فطبرية وجميع الساحل ما دونه مانع ولا عن فتحه وازع) (٥) .

وفي صباح يوم الجمعة ٢٤ ربيع الاخر سنة ٥٨٣هـ/ ٣ تموز ١١٨٧م وصل العسكر الصليبي جبل طبرية في منطقة تعرف باللوبيا فاسرع صلاح الدين إلى التقدم نحوهم والاصطدام بهم قبل ان ينتقلوا إلى موقع اخر يتحصنون فيه لان المنطقة التي وصل اليها الصليبيون كانت ارضاً مكشوفة خالية من كل شيء عدا حرارة الشمس المحرقة والحصى والرمال(٦).

---

(١) انظر الروضتين ٢/٧٦.

(٢) ابن الأثير ، الكامل ١١/٥٣٤.

(٣) ابو شامة ، الروضتين ٢/٧٦.

(٤) الفتح القسي ، ص٧٧.

(٥) ابو شامة الروضتين ٢/٧٦.

(٦) انظر ابن الأثير الكامل. ١١/٥٣٦.

وقد كان صلاح‌الدين قد ردم في هذه المنطقة صهاريج المياه وحال بين الصليبيين ومياه طبرية كما مر ولذلك وجد الصليبيون من العطش كثيراً مما اظهر حكمه صلاح‌الدين ونجاح خططه حيث بفضل مقدرته تلك من جلب اعدائه إلى حتفهم .

لقد كانت القوات الصليبية اذن محتشدة قرب قرية اللوبيا وكان لابد لها من اتخاذ موقف عسكري ملائم من اجل خلاصها وكانت قواتهم مقسمة إلى ثلاث فرق وضعت قيادته بيد الامير ريموند حاكم امارة طرابلس الصليبية بينما تولى الملك جي اوسينيان (*) قيادة القلب اما الامير ارناط حاكم حصن الكرك والفرسان من الصليبيين الرهبان فقد تولوا مؤخرة الجيش وحمايته (١) .

وقد امطر الرماة الكمناء من قوات صلاح‌الدين مؤخرة الجيش الصليبي بالسهام وتمكنوا من قتل عدد كبير من خيولهم وفرسانهم (٢) مما دفع بالمؤخرة إلى التلاحم قليلا مع الفرق الاخرى ليزداد حصارها بشكل اكبر . ومن ناحية اخرى فقد كانت القوات العربية تشاغل الصليبيين طوال النهار بهجمات صغيرة من هنا ومن هناك حتى حل الليل فلم يجد الصليبيون انفسهم الا وهم على هضبة حطين بعيداً عن المياه وقوات صلاح الدين في سهل حطين تحاصرهم وهي واقفة لهم بالمرصاد تضرب وبقسوة من يحاول منهم التسلل عبر القوات العربية للحصول على الماء (٣) .

كذلك وقد قام بعض مقاتلي صلاح‌الدين باخراج النار في هشيم الحشائش المتبقية من حصاد الصيف فتأجج لهب النار والدخان على العدو مما اوقع اضطراباً اخر في قوات الصليبيين وخيولهم (٤) مما دفعهم وبارباك إلى تعجيل الاصطدام بقوات صلاح الدين لأنقاذ انفسهم من هذا المأزق . وقد تعجل الامير (ريموند) ابتداء فاصطدم ببعض قوات صلاح‌الدين

(١) رنسيمان، تأريخ الحروب الصليبية (بيروت ١٩٦٨) ٢/٧٣٧.
(٢) ابن الأثير الكامل ١١/٥٣٥.
(٣) انظر: ابن واصل مفرج الكروب ٢/١٩٠.
(*) الملك جي او جفري هو الملك جاي لوزجنتان ملك بيت المقدس الصليبي وقد اطلقت عليه المصادر العربية القديمة التسمية الثانية (الملك جفري) وقد تولى الملك بعد وفاة بلدوير الخامس ١١٨٦م انظر
(٤) ابن شداد النوادر ص ٧٧ سبط ابن الجوزي مراة الزمان ٨/٣٩٣ .
lane pool, Saladin PP. 197–198 .

فافسح له تقي الدين عمر مجالا ضيقاً فخرج منه من الحصار ببعض قواته ثم لم تلبث قوات صلاح الدين ان التحمت مع بعضها . وكان ريموند يظن ذلك نصراً وهو مكيدة له اذ حالت القوات العربية بينه وبين فصائل القوات الصليبية الاخرى المحاصرة مما اضطره إلى الهرب والعودة إلى امارة طرابلس (١) انه مات هناك كما ذكر . هما لان اصحابه اتهموه بالخيانة والهرب من ساحة المعركة .

لقد ثبط عمل ريموند هذا من عزائم الصليبيين اذ خسروا احد قادة فرقهم مع بعض فرسانه وكان صلاح الدين انئذ بحكم الحصار على اعدائه ويطبق عليهم من كل جانب فقد احاط بهم احاطة الدائرة بقطرها (٢) فاندفع الصليبيون إلى اعلى التل فربما تكون هناك نجاتهم وتمركزوا حول ملكهم جي وخيام قياداتهم المنصوبة هناك . ثم قرروا الاستبسال في القتال والخروج من طوقهم المحاصرين فيه (٣) .

وهكذا نزل الصليبيون مسرعين في نهار السبت ٢٥ ربيع الاخر سنة ٥٨٣هـ/ ٤ تموز سنة ١١٨٧م يحدوهم الامل بالنصر إلى حصون حطين وهناك دارت معركة رهيبة انتصر فيها صلاح الدين انتصاراً عظيماً بعد ان كان قد احرق تحت اقدام عدوه الاعشاب . (فاجتمع عليهم العطش وحر الزمان وحر النار والدخان وحر القتال) (٤) وقد بقي جيش صلاح الدين وقائده في اقوى عزيمة ورباطة جأش من القتال رغم شارات النصر الواضحة وكان صلاح الدين يستشير اصحابه ويراقب الموقف بحزم ويتطلع إلى معنويات مقاتليه فيثير فيهم الهمم العالية ويدفعهم إلى استمرارية القتال حتى تصفية كل بقايا الصليبيين . فربما ينقلب النصر إلى هزيمة وربما يصاب المنتصرون بالغرور فينتكس انتصارهم . فالملك جي بقي لوحده مع مائة وخمسون فارساً من قواته قرب خيمته الوحيدة وصلاح الدين يأمر بالقتال الحاسم وينادي بـ (الله اكبر) بأعلى صوته وكانت المعركة على اشدها ولم يهدأ له بال حتى سقطت تلك الغيمة واسر الملك الصليبي .

---

(١) انظر ابو شامة الروضتين ٢/٧٧ .
(٢) ابن الأثير الكامل ١١/٥٣٥ .
(٣) الأصفهاني الفتح القسي ص ٧٦ .
(٤) ابن الأثير الكامل ١١/٥٣٦ .

وقد اشاد المؤرخ العربي ابن الاثير بحزم صلاح‌الدين وعزمه في هذه المعركة وسجل لنا ما شاهده من قصة صلاح الدين وولده البكر الملك الافضل نورالدين الذي كان مرافقاً لوالده صلاح‌الدين في المعركة فذكر ان الافضل كان بجانب والده وسط المعركة ولما شاهد صلاح‌الدين تقهقر بعض افراد قواته صاح باعلى صوته (كذب الشيطان .. كذب الشيطان) فعادت قواته بمعنوياتها العالية تهزم العدو ، ولما شاهد الافضل هذا الموقف صاح من فرحته (هزمناهم ... هزمناهم) فالتف اليه والده صلاح‌الدين وقال له (اسكت مانهزمهم حتى تسقط تلك الخيمة) (١) يعني خيمة الملك الصليبي جي . وفي اثناء ذلك سقطت الخيمة فترجل صلاح‌الدين وسجد على الارض شكراً لله تعالى وبكى من فرحه وثبت انتصاره . وكان من نتائجه قتل عدد كبير من جيش عدوه واسر مقدميهم وكان منهم الملك جي (جفري) والذي فقد فرسانه كما اسر البرنس ارناط واخا الملك وابن الهنفري وابن حاكمة طبيبه ورؤساء الفرسان من الرهبان وحاكم جبيل ولم ينج الا القومص الذي هرب إلى طرابلس اول المعركة ، وقد نال المعتدين جزاءهم وعامل صلاح الدين جي بالاحسان اكراماً لمركزه (٢) وهكذا كان لوجود صلاح‌الدين وابناءه وسط ساحة المعركة والخطط العسكرية الجيدة والمعنويات العالية التي تحلى بها جند صلاح‌الدين اثره الواضح في هذا الانتصار . وعليه فلم تكن الهزيمة التي اصابت الصليبيين نتيجة ضعف او فساد كان فيهم وانما كانت قياداتهم ضعيفة وقابلهم جيش موحد له قائد محنك هو صلاح‌الدين (٣) انتقلت صفاته ومقدرته إلى السنة الاوربيين في العصور الوسطى وكانت حديث الساعة وقد اضفى عليها بعض اساليب الاسطورة الادبية (٤) .

ولذلك ايضاً فان انتصار صلاح‌الدين هذا لم يكن نتيجة لضعف القوات الصليبية او لقلة عددهم وانما للخطة العسكرية الجيدة والسياسة الحكيمة التي اتبعها صلاح‌الدين في اعداده للمعركة ومشاركته الفعلية فيها . فقد أحسن اختيار الارض وزمن وقوعها الذي

---

(١) الكامل في التأريخ ١١/٥٣٦

(٢) ابن شداد النوادر ص ٧٧–٧٨ المقريزي السلوك ١/٩٣ ابن النديم زبدة الحلب ٣/٩٣–٩٤

(٣) انظر ، شعلة الأسلام ص ١١١ هامش رقم ٣

(4) Daniel, Islam and the west (Edinburgh, 1966, P 240

كان شهر تموز اشد اشهر السنة حرارة واقله ماء في الصهاريج اضافة إلى انه خيم بعسكره على طبرية وبذلك اصبح بقواته حائلاً بين الصليبيين وبين الماء ولا يخفى كذلك فان وجود القائد في المعركة تدفع بالجند إلى الاستماته في القتال علماً بأن المقاتل العربي كان يقاتل بعقيدة وهدف (١) وكما هو واضح فالجندي الذي لا يعرف (لماذا يقاتل) لا يعتبر مقاتلا صالحاً ، وكان صلاح‌الدين وجنده — كما بدى — يقاتلون بعقيدة واضحة سلوك سليم . فالجميع يعرف ان الاعداء غزاة وانهم جاءوا من ارض اجنبية وسيطروا على بلادهم والجميع كانوا ايضاً يقاتلون بروح عالية مستمدة مفاهيمها من روح الجهاد الاسلامي فيندفعون إلى الموت من دون تردد ، فقد كانوا يستميتون في القتال من غير ان يدفعهم اليه احد بل كانوا احياناً يمنعون عن الهجوم المستمر خوفاً عليهم من الاستشهاد من غير مبرر ، بينما هم طواعيه يقاتلون وقد وصف المؤرخ ابن الاثير ذلك القتال وتلك الروح العالية بقوله (كانوا يرونه ديناً وحتماً واجباً ، فلا يحتاج إلى باعث سلطاني . بلّ كانوا يمنعون ولا يمتنعون ويزجرون ولا يتزجرون (٢) .

لقد دلت معركة حطين من دون شك ومبالغة ايضاً على مقدرة صلاح‌الدين العسكرية وحسن قيادته وتخطيطه المحكم والمسبق لها ، وقد اوضح المؤرخ الانكليزي (روزبلت) هذا الموقف بقوله (لم يكن ثمة نصر كامل او نتائج مثمرة كما حدث في حطين ولم يكن ذلك النصر الكامل الا نتيجة الخطة الجيدة والقيادة القوية((٣) فقد كان صلاح‌الدين طوال المعركة ونهارها وسط جنده يثير فيهم الحماس يعين لهم مواضع القتال ويقرر (لكل امير اميراً ولكل مقدام مقاماً ... ولكل كمين مكاناً ولكل رام مرتمي ولكل امير موقفاً في الميمنة والميسرة ولا ينتقل عنه) (٤) كما كان يحدد مواضع النبال ومواقع الرماة (٥) .

---

(١) العقيدة العسكرية : مايملأ قلب الجندي ويحدد سلوكه وهي التي تحدد الاجابه عن السؤال : لماذا اقاتل ؟ للمزيد عن العقيدة والهدف في المعركة راجع : محمد جمال الدين محفوظ مفاهيم عسكرية وقومية (الدار الوطنية للطباعة والنشر : ١٩٦٥ ص٨— ١٠.

(٢) الكامل في التأريخ ٥٤٧/١١

(3) Raseboult, Saladur Pruce of Chivalry lerudau 1930 p. 182

(٤) الأصفهاني : الفتح القسي ص ٦٩—٧٠

(٥) ابو شامة، الروضتين ٧٦/٢

لم يكن انتصار صلاح‌الدين في حطين انتصاراً معركة فحسب وانما كان انتصاراً موفقاً تمكن فيه صلاح‌الدين من استثمار مصالحه وبشكل محكم ، اذ كانت حطين بحق — كما ذكر — الاصفهاني — (مفتاح الفتوح الاسلامية) (١) حيث اكمل بعدها صلاح‌الدين من تتبع فلول الصليبيين المنهزمة وتعقبهم إلى كل تحصيناتهم البعيدة فاتجه إلى المدن والقلاع العربية المحتلة واخذ يحررها الواحدة تلو الاخرى ففي ٢٨ ربيع الاخر سنة ٥٨٣هـ / تموز سنة ١١٨٧م (اي بعد اربعة ايام من معركة حطين) تقدم نحو مدينة عكا وتمكن من تحريرها(٢) ثم تقدم بعد ذلك إلى تحرير كل الحصون والقلاع المجاورة الاخرى .

وتتضح سياسة صلاح‌الدين الحكيمة وفكره العسكري الصائب من توجهه نحو الساحل الشامل بعد معركة حطين وعدم توجهه مباشرة نحو تحرير القدس ، فقد اختار (ان يحرم الصليبيين من قواعدهم البحرية التي تربطهم بالعالم الخارجي وبخاصة الغرب الاوربي فيمسو محصورين داخل بلاد الشام (٣) فصلاح‌الدين كان قد اطبق على عدوه في حطين من كل جانب وانتصر عليهم ، والأن عمد لتوسيع دائرة الحصار لتشمل كل بلاد الشام وعندها يكون الغزاة تحت المطرقة العربية ، تضربهم من جانب بعد ان يكون صلاح الدين قد سهل عليه مهمة الأتصال البحري السريع بين موانئه البحرية الموجودة في الساحل المصري وبين الموانيء الشامية (٤) وعندها يتفرغ وبهدوء المقاتل الحكيم لتحرير كل الأرض المحتلة بما يتيسر له من ظروف .

ولذلك بعد ان حرر صلاح‌الدين مدينة عكا تقدم بقواته نحو تحرير الحصون المجاورة لها امثال الناصرة ، قيسارية حيفا ، صفورية ، الشقيف ، الفولة والطور وغيرها ثم ارسل ابن اخيه حسام الدين بن لاجين على رأس قوة عسكرية نحو مدينة نابلس وحاصرها واستنزل من كان بها من الصليبيين بالأمان وتسلم قلعتها وردها الى اهلها من العرب والمسلمين(٥)ثم بعد ذلك

---

(١) انظر : السابق ٢/٨٢— ٨٣

(٢) ابن شداد ، النوادر ص٧٩

(٣) عاشور . الحركة الصليبية ٢/٨١٣.

(4) Stevenson, thr Crusaders in the East, P. 249

(٥) انظر ابو شامة الروضتين ٢/٨٧— ٨٨ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ٢/٢٠٢—٢٠٣

حرر جند صلاح الدين قلعتين ثم مدينة صيدا في٢١جمادي الأولى من سنة ٥٨٣هـ (١) ثم مدينة عسقلان (*) وقد طلب الصليبيون في العديد من المدن والقلاع السابقة الامان من صلاح الدين فكان يأمنهم ثم يسربهم ونساؤهم الى صور اوبيت المقدس (٢) .

وقد امتازت سياسة صلاح الدين العسكرية تجاه الغزاة في هذه المرحلة بعدم استخدام القسوة ومنح الأمان للبلد الراغب في السلام والأيفاء بالعهد عن طريق ايصال المغلوبين الى مأمنهم (صور او القدس) من دون الحاق اي ضرر بهم. وقد عاب بعض المؤرخين على صلاح الدين هذه السياسة العسكرية واتهمه ابن الأثير بتحمل مسؤولية عدم التمكن من فتح صور مستقبلا فقال: (ولم يكن لأحد ذنب في امرها غير صلاح الدين فأنه هو جهز اليها جنود الفرنج، وامدها بالرجال والأموال من اهل عكا وعسقلان وغير ذلك كأن يعطيهم الأمان ويرسلهم الى صور) (٣).

والواقع فأن صلاح الدين لم يكن مخطئاً في اتباعه لتلك السياسة لأن هدفه الأول كان تحرير القدس وكان عليه ان يتخذ احد السبيلين: اما ان يتجه مباشرة بعد معركة حطين نحو القدس ويحررها ومن ثم يفتح بقية الحصون والمدن المجاورة او ان يفتح المدن والحصون المجاورة ثم يتجه نحو القدس .

وقد فضل صلاح الدين الخطة الثانية لأنه في حالة تنفيذه الخطة الأولى تكون خطوط رجعته عندئذ مهددة وسيتطلب لتنفيذ هذه المهمة قوات عسكرية لمحاصرة المدى والحصون المجاورة اوقطع طرق مواصلاتها المؤدية للقدس كي يتمكن من التصدي لفتح القدس بسلام كما ان هجومه على القدس مباشرة يؤدي الى استنفار قوات الصليبيين كافة فتكون عندئذ قوى الصليبيين مع قوات القدس مجتمعة ضده،ولما عزم صلاح الدين على تنفيذه خطته الثانية— فتح الحصون اولا ثم القدس .

---

(١) ابن الأثير الكامل ١١/٥٤٢

(*) من الجدير بالذكر ان صلاح الدين خرج من صيدا الى عسقلان لأن صور كانت في تلك الفترة مركزاً للتجمع الصليبي فرأى صلاح الدين قصد عسقلان لأن امرها ايسر وربما لأنتشار عسكره على الساحل وعدم اجتماع على صور خاصة وان عسقلان تقع في ملتقى الطرق بين سوريا ومصر انظر lanepool, Saladin. P. 223

(٢) انظر ابن شداد النوادر ص ٨٠—جـ٨ ابن واصل مفرج الكروب ٢/٢٠٩

(٣) الكامل في التأريخ ١١

ثانياً: واجه امامه عده مدن وحصون كان عليه ان يفتحها مثل عكا وصور وعسقلان وبيروت وصيدا وغيرهم ولو لم يتبع صلاح الدين السياسة السليمة لكان عليه ان يضرب بقوة بتلك المدن والحصون وفي هذا نتائج خطيرة على مستقبل فتوحاته وسمعته ثم لو اتبع صلاح الدين السياسة الحربية القاسية ضد الصليبيين ولا متنعت عليه كثير من تلك المدن والحصون ولاشغلته طويلا عن تحقيق مهمته الأولى فتح القدس .

ومن جهة ثانية فأن صلاح الدين لو لم يمنح الأمان للصليبيين ويرسلهم الى صور لاصبح الزخم في القدس شديداً ولاستعصى عليه فتحها ثم لو لم يعلم الصليبييون ان صلاح الدين يسمح لهم بمغادرة حصونهم بسلام مكرمين الى القدس اوصور لقاتلوا ضد صـــلاح الدين حتى الموت .

ولما كان صلاح الدين قد خطط لفتح القدس اولا ثم صور لذلك فأن ارساله للصليبيين المغلوبين على امرهم الى هذين المدينتين كان تكتيكاً عسكرياً منه قصد به اشغال الصليبيين بمهمة الأنتقال واضعاف مقاومتهم لأن القدس وصور سوف تصبحان بيده اذا مانجحت سياسته .

اما ماقدر لصور من ان تبقى بعد فتح القدس عاصية وان تكون معقلا للصليبيين فـأن صلاح الدين لم يكن يتوقع مجرى الأحداث في المستقبل ولم يكن له علم بأن حمـلـة عسكرية ستكون قوية وستظم اعظم ملوك أروبا النصرانية ، انئذ الى صور وتتحصن فيها قبل ان يتمكن صلاح الدين من فتحها ولذلك (فمن غير التاريخي ان نتصور صلاح الـديـن وكأنه يعد الخطط ويوزع قواته للتصدي وللهجوم الوشيك من الغرب (١).

على أية حال فأن صلاح الدين توج انتصاراته السابقة بتحريره مدينة القدس اولى القبلتين وثاني المسجدين وثالث الحرمين ومعراج الرسول (ص) مقر الأنبياء عليهم السلام ففي ١٥ رجب سنة ٥٨٣هـ / ٢٢/ ٩/ ١١٨٧ م وصل صلاح الدين بقواته الى ظاهر المدينة وبقي خمسة ايام يطوف حول سورها لينظر من اين يهاجمه ثم وقع اختياره على جهة الشمال فأنتقل اليه وبقي طوال الليل يجيء قواته وينصب المجانيق (٢) وقد حدثت حول المدينة عدة مناوشات تبين للصليبيين من خلالها قوة صلاح الدين وجنده ومقدرتهم على فتـح

(١) رجب ، صلاح الدين ص١٥٢ .
(٢) انظر ابن الأثير الكامل ١١/٥٤٧

المدينة عنوة فقرروا الأستسلام بعد توقيعهم لمعاهدة مع صلاح الدين يخرج الغزاة بموجبها من المدينة خلال مدة اقصاها اربعون يوماً صاغرين يدفع كلا منهم —من غير رجال الدين والشيوخ — مبلغاً من المال (١) يؤدونه لصلاح الدين وكان ذلك في ٢٧ رجب سنة ٥٨٣هـ/ ١٢ — ١٠—١١٨٧م وقد كان صلاح الدين وهو المنتصر عطوفاً رحيماً بالمنكسرين مدحه الكاتب الأنكليزي لين بول بقوله (ولم يكن صلاح الدين عظيماً كعظمته في هذا الموقف فقد امر بأنتشار الأمراء والجنود ليمنعوا اي اعتداء او اهانه تقع لأي مسيحي ....وقد توجه اليه الاف من النساء وبنات الفرسان الذين اسروا اوقتلوا في تلك المعارك وخدمهم يسألنه الرحمة فامر بأطلاق سراح ازواجهن واخوانهن ومنح بعضهن هبات مالية مناسبة» (٢). وبذلك منح جند صلاح الدين الرحمة للمدينة المقدسة فلم تتعرض دار من الدور للنهب ولم يحل بأحد من الصليبيين مكروه بينما كان الغزاة منذ ثماني ونمانين سنة يخوضون في دماء ضحاياهم .

هكذا اذن كان صلاح بحق رجل وقته ونسيج عصره فقد قضى سني حياته يصد هجمات الغزاة الصليبيين عن بلاد الشام وقد برهن— استنتاجاً مما سبق — على مقدرة عسكرية كبيرة وفائقة . وقسوة على النفس في الأخلاص (فقد صان شرفه وحافظ عليه أكثر من حفاظ الصليبيين على قانون الفروسية) (٣) وكان رجلا مستقيماً يعرف بظاهره وحسن نواياه لم يستخدم المكر والخديعة حتى مع اعدائه بينما استغل اعداؤه تلك الصفات فعمدوا مراواً وتكراراً الى التسويف معه بالمواعيد والمراسلات الكاذبة عبروا فيها عن سوء نواياهم واخلاقهم .(٤)

(١)قدر مبلغ الفدية عشرة دنانير على الرجل وخمسة على المرأة وعلى الطفل دينارين علماً بأن صلاح الدين والعديد من قادة جنده اعفوا مئات الصليبيين من تلك الفدية بل قدموا لهم اضافة الى ذلك العديد من المساعدات المالية او الحماية من اية اعتداء قد يقع عليهم اثنـــاء خروجهم من المدينة او عند ذهابهم للجهة التي يريدون التوجه اليها ؛ انظر دريد سياسة ص٣٠٩—٣١٠

(2) Lanepool, Saladin' R. 235

(٣) لا مب شعله الأسلام ص٣٠٣.

(٤)لمعرفة بعض الأحداث التي سوف فيها الغزاة مع صلاح الدين انظر الأصفهاني الفتح القدس ص ٣٤٩ ابو شامة الروضتين ١٣٩/٢—١٤٠ بن واصل مفرج الكروب ٨٢/٢.

ولم يكن ذلك الأنتصار لولا الصفات المعنو ية والمادية التي تحلى بها صلاح الدين وجنده فأضافة الى بناء صلاح الدين لتلك الوحدة القومية فأن بجيمع كانوا يحاربون اعدائهم بعقيدة وكانوا يدخلون المعركة بأندفاع مدهش لأنهم كانوا يرون في القتال (ديناً وحتماً واجباً)ـ كما مرّ ـ اضافة الى الخطط العسكرية الجيدة التي اتبعها صلاح الدين والمشاركةالفعلية للقائد في الحرب الى جانب جنده، وقد برزت له تلك الميزة حتى في اشد الأيام الدامية حيث كان ينتقل وسط ميدان المعركة يوقظ الهمم ويحي في الجند الروح المعنوية العالية .

كذلك فقد كان لاتباع الحرب الخاطفة ومباغته الاعداء كانت من اساليب صلاح الدين وقد تبين هذا واضحاً بعد معركة حطين في هجماته المتلاحقة على عكا وصفد وغيرهما مَن المناطق . وكان صلاح الدين بأعتراف اعدائه يقاتل نهار بحيث لايدع وقتاً للاكل والراحة (١).

وقد اوضح المستشرق هاملتون جاب بعض تلك المميزات الأخرى التي ساعدت صلاح الدين على تحقيق انتصاراته وعبرت عن فكره الصائب فقال :ـ

(جاءت بفعل امتلاك صلاح الدين لصفات معنوية «أدبية» لاتشترك مع المواهب الأستراتيجية الا في القليل كان رجلا من امثال اعلى ذي قوة وثبات وايمان ديني راسخ الأركان وكذلك في المراعاة الدقيقة للعهود التي يأخذها على نفسه وفي سماحة النفس التي لاتعرف المكر والغدر (١) هذا ويمكن تتبع مميزات الفكر العسكري لصلاح الدين والأسلوب الذي اتبعه قبل وبعد المعركة في حطين بالنقاط التالية والتي اشار اليها البحث فيما سبق بالدليل وهي :

اولا : القيادة القوية والحكيمة المتمثلة بشخص صلاح الدين .

ثانياً : تعبئة الشعب وتوحيده وتهيأته للمعركة والأسهام بها مادياً ومعنوياً .

ثالثاً : الأشراف المباشر للقائد في المعركة ومجاهدة العدو الى جانب مقاتليه .

---

(١) انظر لامب شعلة الأسلام ص ١٥٦، ١٦٣، ١٦٦، ١٦٧

رابعاً: **الخطط** العسكرية الجيدة ومعرفة طبيعة ارض العدو وامكانياته.

خامساً: عقائدية الجيش وايمانه بقضيته وتشبعه بفكرة الجهاد في سبيل الله تعالى.

سادساً: مقدرة الأستخبارات العسكرية على رصد تحركات العدو وتقدير حجم قواتـه ومعداته .

سابعاً: تهيأة فرق الجيش بأقسامها المتنوعة ذات التدريب المؤهل للاسهام بالمعركة

ثامناً: التموين الجيد والمستمر للمقاتلين .

تاسعاً: توفير السلاح والعدد اللازمة لأدامة المعركة بشكل سليم .

عاشراً: ولاننسى اخيراً الظروف المواتية التي خدمت صلاح الدين اعتباراً من وفاة نور الديـــن الى اتمام الوحدة اذ لولا الوحدة لبقيت فكرة صلاح الدين بتحرير القدس مجرد امنية جميلة .

وهكذا اذن كان للوحدة التي قام بتشكيلها صلاح الدين اهمية واضحة في تمكينه من تحرير القدس وساحل بلاد الشام اذ بفضلها امنت خطوط قواته الخلفية وبفضلها زود جند صلاح الدين بالمئات من المجاهدين والعدد . وبفضلها ايضاً كانت خطط التموين قريبة والأجناد والخيل مستريحة، فالبلاد قريبة والميرة متسعة .

«الخاتمة»

لم تكن الظروف التي مر بها صلاح الدين الأيوبي ظروفاً عادية فقد كانت التجزئة حاصلة واقعياً فكل حاكم ووالي يتصرف في شؤون ولايته مايشاء وبعض منهم يمد يده للتعامل مع الصليبين الجاثمين فوق صدر الأمة في القدس والبعض الا خر لايهمه امرهم من قريب ولامن بعيد للحروب والمعارك، من قلب كل هذه المعاناة نهض صلاح الدين يصنع النصر في عصر الهزيمة ويصنع الوحدة في عصر التجزئة ويقطع اليد التي تقاتل العدو في عصر التصنع والترفع وهكذا كان له ماراد وطرد الصليبيين بمعارك كان اولها حطين واخرها رحيلهم الى غير رجعة وتعاد للامة هيبتها التي نال منها الغزاة .

فما اشبه اليوم بالبارحة ،واذ نؤكد هذه الحقيقة الان فلا يعني هذا انها لم تكن أكيدة وملموسة من قبل او لم تكن واضحة الوضوح الكافي طوال سنوات الحرب المفروضة على الأمة العربية في فلسطين وعلى عراقنا العظيم من جانب اطراف المؤامرة العدوانية الأيرانية ـالصهيونية المسندة من اطراف دولية وحلفاء عديدين وليكن الأنتصار العراقي العظيم في ملحمة تحرير الفاو والشلامجة حافزاً لنهوض عربي جبار يضع حداً لخيانة بعض الحكام ولمداخلات حلفاء الصهيونية .

ويبقى شعار الوحدة طريق التحرير لفلسطين .

وان صهاينة اسرائيل هم احفاد يهود خيبر وفرس كسرى هم اجداد مجوس الخميني ان مايرتكبه من اجرام ازلام خيبر الان في فلسطين هم اشقاء مجرمي الخمينية. لكن العرب هم العرب ذاتهم لقد خاض العرب المعارك الحاسمة والمقدسة من خلال . الفتوحات الأسلامية ضد الفرس كما خاضوها ضد الوثنية والمجوسية والفارسية والدجل خاضوها حروب مقدسة عادلة مبشرة بالخير والتوحيد فلم يكونوا في حينه كما يدس المغرضون من انها كانت حروب ودعوات الى الأسلام بحد السيف ان العرب اول من طبق مبدأ (لاأكراه في الدين) فالدين لله والوطن للجميع لقد انتصر العرب بعد ان توفرت لهم كافة مستلزمات النصر في حينه ومقوماته من امه حية مؤمنة بالمباديء والمثل والأنسانية والخير والسعادة لهم وكما لغيرهم ومن قادة مخلصين وابطال نفخوا في شعبهم روح النهوض وناشدوهم استحضار روح وشجاعة واخلاص وانسانية اجداهم السلف العظام .

لقد انتصرت امة العرب من خلال العراق كما انتصروا سابقاً بعد توفر المستلزمات من جيش مقدام اذهل العالم بشجاعته وتضحياته ومن امة مؤمنة ايمان اجدادهم السلف بالمباديء والخير وظهور القائد الضرورة الرئيس صدام حسين وكان القائد الضرورة لتأريخ الأمة العربية المعاصر هذا التأريخ والذي له الوجوه المشرقة في العصر الحاضر كما كانت وجوهه سابقاً ومأثورة الحجارة في فلسطين ان هي إلا هو الوجه المشرق الذي فيه التفاؤل وان عظمت التضحيات والعالم يعلم جيداً ان العرب لن يناموا على ضيم وحرب العراق الثمان سنوات مع العدو الجاهل المتعجرف والحقود هذا العدو والذي يفوقنا بالعدد والعدة ان هو الا ايضاً وجه مشرق آخر ومتفائل لامة العرب في تأريخها المعاصر.

ولابد لي ان اشير الى حقيقة هي ليست بعيدة عن موضوعنا هذا الا وهي ان للعالم قد اعجب بمعارك الحرب العالمية الثانية المتناثرة والمتباعدة واعجب بقادتها الذين ساهموا فيها، لقد اشتركت فيها اغلب دول العالم الأوربي متعاونة في وقت ومتخاذلة ومنكسرة في اوقات اخرى ضد العدو الألماني فأين تلك المعارك من المعارك العراق والعراق الوحيد وجيش العراق الوحيد وقائد العراق الوحيد الذي ناصبه العداء (للاسف الشديد) نفر من المحسوبين على العرب والعروبة من احفاد ابي رغال وابن العلقمي انصار مسيلمة الخميني ان ذكر. وتذكير العالم فقط بأسماء وملاحم معارك جيش العراق دون ذكر التفاصيل لهو الدليل الأكيد والقاطع على ان امة العرب والعراق بخير طالما كان له جيش يحميه وقائد عربي مخلص وشجاع وان النصر والمستقبل لنا ان اشاء الله .

وما معارك الحصاد الأكبر والسيلاد والأنفال وتوكلنا على الله وتحرير الفاو وما سبقها من المعارك المشرقة السابقة وحصيلاتها جميعاً من نصر وزهو وفخر ان هو الا الدليل الأكيد على حتمية النهوض طالما توفرت واستحضرت الأمة الحية والشعب الصامد . والقائد المخلص والشجاع والعالم كله يعرف ان قائدنا ورئيسنا صدام حسين الذي هو غني عن التعريف هي له كما كانت لاجداده من قبله لهم .

المصادر والمراجع : —

اولاً : المصادر القديمة : —

١ — الأصفهاني : عماد الدين بن عبد الله محمد بن احمد (ت ٥٩٧هـ) الفتح القسي في الفتح القدس (ليدن : ١٨٨٧).

٢ — ابن الأثير : عز الدين ابو الحسن علي بن محمد الشيباني (ت٦٣٠هـ) الكامل في التأريخ م١١— ١٢ (بيروت ١٩٦٦).

٣ — ابن تغري بردي : جمال الدين ابو المحاسن(ت : ٨٧٤) النجوم الزاهرة في اخبار ملوك مصر والقاهرة (القاهرة ١٩٣٥—١٣٥٣هـ) .

٤ — ابن الجوزي : ابو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت٥٩٧هـ) المنتظم في تأريخ الملوك والأمم (حيدر آباد الدكن : ١٣٥٨هـ) .

٥ — ابن خلدون ، عبد الرحمن (ت٨٠٨هـ) .
تأريخ ابن خلدون المسمى (العبر وديوان المبتدأ والخبر من عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر(بيروت : ١٩٦١).

٦ — ابن خلكان ، شمس الدين احمد بن محمد (ت٦٨٤هـ) وفيات الأعيان ،وابناء ابناء الزمان ،تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد (القاهرة ١٩٤٩) .

٧ — ابن شاهنشاه ، الملك المنصور محمد بن عمر الأيوبي (ت٦١٧هـ) مضمار الحقائق وسر الخلائق، تحقيق د. حسن حبشي (القاهرة ١٩٦٨) .

٨ — ابن شداد بهاء الدين يوسف بن رافع (ت ٦٣٢هـ) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (سيرة صلاح الدين) تحقيق د. جمال الدين الشيال) (القاهرة ١٩٦٤).

٩ — ابن النديم كمال ابو القاسم عمر (ت٦٦٠هـ) زبدة الحلب في تأريخ حلب تحقيق سامي الدهان (بيروت ١٩٦٨) .

١٠ — ابن العماد الحنبلي ،عبد الحي الحنبلي (ت١٠٨٩) شذرات الذهب في اخبار من ذهب (بيروت : د/ث) و(مطبعة مكتبة القدس ١٣٥٠هـ) .

١١ — ابن قاضي شعبة بدر الدين (ت٧٧٤هـ) الكواكب الدرية في السيرة النبوية وتحقيق د. محمد زاير (بيروت ١٩١٨) .

١٢ ــ ابن القلانسي ، ابو يعلي حمزة (ت٥٥٥هـ) ذيل تأريخ دمشق تحقيق اندروز (القاهرة ١٩٠٨) .
١٣ ــ ابن كثير ، عماد الدين ابن ابي الفداء اسماعيل (ت٧٧٤هـ) البداية والنهاية (القاهرة ١٩٣٢).
١٤ ــ ابن واصل ، جمال الدين محمد بن سالم (ت٦٩٧هـ)مفرج الكروب في أخبار بن ايوب ، تحقيق جمال الدين الشيال (القاهرة ١٩٥٧) .
١٥ ــ ابو شامة شهاب الدين ابو محمد بن عبد الرحمن (ت٦٦٥هـ) الروضتين في اخبار الروضتين النورية والصلاحية (القاهرة ١٢٨٧ــ١٢٨٨هـ).
١٦ ــ البنداري قوام الدين ابو الفتح علي بن محمد (ت٦٤٣هـ) سنا البرق الشامي وهو مختصر لكتاب القدس الشامي) للعماد الأصفهاني تحقيق رمضان ششن ، (بيروت ١٩٧١) .
١٧ ــ الحموي ، ابو عبدالله شهاب الدين ياقوت بن عبدالله الرومي (ت٦٢٦هـ) معجم البلدان (بيروت ١٩٥٧).
١٨ ــ سبط ابن الجوزي ، شمس الدين بن المظفر يوسف (ت٦٥٤هـ) مرآة الزمان في تأريخ الأعيان ق١ ، ج٨(حيدر اباد الدكن ١٩٥١) .
١٩ ــ العليمي ، عبد الرحمن الجبرتي العمري (ت٩٢٧هـ) والأنس الجليل بتأريخ القدس والخليل (النجف ١٩٦٨) .
٢٠ ــ القلقشندي ، ابو العباس احمد بن علي (ت٨٢١هـ) صبح الأعشى في صناعة الأنشاء (القاهرة ١٩٦٣).
٢١ ــ المقريزي ، تقي الدين أحمد بن علي (ت٨٤٥هـ) :
آ ــ السلوك لمعرفة دول الملوك تحقيق محمد مصطفى زيادة (القاهرة ١٩٣٩).
ب ــ البيان والأعراب عما بأرض مصر من الأعراب (القاهرة ١٩٦١).
٢٢ ــ اليافعي ، ابو محمد عبد الله بن اسعد (ت٧٦٨هـ) مرأة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة مايعتبر من حوادث الزمان (حيدر آباد الدكن ١٩٧٠).

ثانياً : المراجع الحديثة: —

٢٣ — ابو بكر جلال طه: صلاح الدين الأيوبي اسد القارتين (بغداد ١٩٦٧).

٢٤ — جب، هاملتون أ.ر. : صلاح الدين الأيوبي، تحرير يوسف أيبش(بيروت ١٩٧٣).

٢٥ — دريد عبد القادر نوري :

آ — سياسة صلاح الدين الأيوبي في بلاد مصر والشام والجزيرة (بغداد ١٩٧٦).

ب — الوطن العربي والعزو الصليبي (جامعة الموصل ١٩٨٠) .

٢٦ — رنسيمان ستيفن : المدينة البيزنطنية— الحروب الصليبية — ترجمة د. صالح احمد العلي (بغداد ١٩٥٦) .

٢٧ — عاشور: سعيد عبد الفتاح : الحركة الصليبية صفحة مشرقة في تأريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى (القاهرة ١٩٦٣).

٢٨ — العريني: السيد الباز: مصر في عصر الأيوبيين (سلسلة الألف كتاب عدد ٢٦٩) القاهرة لم يذكر السنة.

٢٩ — غرايبه، عبد الكريم: العرب والأتراك دراسة لتطور العلاقات بين الأمتين خلال الف سنة (دمشق ١٩٦١) .

٣٠ — فيشر، هربرت أ.ل. تأريخ اوربا (العصور الوسطى) لقسم الأول ترجمة. محمد مصطفى زيارة وزميله (القاهرة ١٩٦٦) .

٣١ — لامب هاورلد.

شعلة الأسلام ،ترجمة : محمود عبد الله (بغداد ١٩٦٧).

٣٢ — محمد جمال الدين محفوظ .

مفاهيم عسكرية وقومية (الدار القومية للطباعة ١٩٦٥) .

ثالثاً : المصادر الاجنبية:

33. Champdor (Albert):
Saladin le plus purheros de lislam, Editions Albin Micher, Paris, 1956.

34. Daniel (Norman):
Islam on th west the Making of an Image, Edinburgh, 1966.

35. Lane Pool (S.):
A. History of Egypt in the middle ages, London, 1968.
36. Lane Pool (S.)
Saladin and the fall of the Kingdom of Jerusalem, Khayats-Beirut, 1962.
27. Siven (Emmanuel):
L'Islam et al Croisade Ideologie et propagande dans les Reactons Musulamanes aux Cronsades (Paris, 1968).
38. Stevenson (W.R.):
The Crusaders in the East Cambridge, 1907.